مقدمة

فى مطالع النصف الثانى من هذا القرن العشرين، ومصر ترنو بعين الأمل إلى ما يمكن أن تحققه لها الديموقراطية الصحيحة، يحدث أن تزور القاهرة والإسكندرية فرقة للموسيقى السمفونية تعتبر أصلا وفصلا من أولى الجماعات الموسيقية فى العالم، تلك هى «فلهارمونية» فينا.

وبمجرد اطلاعى على برامج حفلاتها فى العاصمتين قام بنفسى أن أضع هذا الكتاب، فقد حان الوقت أن تصحو البلاد من غفلتها الموسيقية لتصيخ آذانها إلى النماذج الرفيعة فى الموسيقى.

ألفته فى شهرين، وموسيقى الفلهارمونية تملأ أسماع أهل الحجا والثقافة بمصر، وغمرة الحماس تشملنى من رأسى إلى أخمص القدمين.

والموسيقى لا يكتب عنها إلا على أساس التجربة. والتجربة هنا هى الاستماع. وهذا الكتاب لم ينقل عن الكتب، وإن استعان صاحبه باطلاع لا بأس به على أمهاتها. وإنما هو نتيجة خبرة

بالموسيقى السمفونية تمتد إلى أكثر من ثلاثين عامًا متصلة، فى عواصم الموسيقى: فينا وباريس ولوندرة وبرلين ومونيخ وسالزبورج، وإلى محطات الإذاعة الهامة. وخبرة الممارسة عزفًا ودراسة للأصول.

والموسيقى لا يقرأ عنها إلا على أساس التجربة أيضًا، والتجربة هنا هى استماع. ونصيحتى لمن يطالع هذا الكتاب ويهدف إلى الاستفادة الحقة منه أن لا يكتفى بمطالعته كما تطالع الكتب، بل أن يرجع دائمًا إلى الموسيقى ذاتها ينصت إليها أمام الراديو والفونوغراف، وفى الحياة ما وجد إلى هذا سبيلا - ولا سبيل إليه فى مصر إلا نادرًا جدًا مع الأسف. وليطمئن القارئ إلى أن الإذاعة المصرية تقدم له فى قسمها الأوروبى مختارات طيبة جدًا من الموسيقى موضوع هذا الكتاب. فإذا أضاف إليها الإذاعات الأوروبية التى تسمع بوضوح فى مصر - وأنا أخط هذه الكلمات على صوت خماسية جابريل فوريه تعزفها مجموعة فرنسية من راديو لوندرة - استطاع فى وقت قصير أن يستمع إلى جميع المؤلفات التى أعالجها هنا.

أقدم هذا الكتاب خصيصًا إلى الشباب، لأوجهه فى طريق الفهم الصحيح لموسيقى الحضارة. وليس الطريق معبدًا سهلا للكاتب. إذ كيف يتاح له أن يقرب الموضوع إلى الأفهام، ويتجنب من الاصطلاحات الفنية ما لا غنى عنه؟ تلك هى المحنة،

ولا أحسبني اجتزتها بسلام. فقد تعثرت كثيرًا لأن الأسلوب لم يجيء عفوًا، ولا يواتي كما كنت أرجو. ولست أدعي فخرًا. بل أقرر حقيقة إذ أزعم بأنني حاولت خلق أسلوب في النقد الموسيقي. وهي محاولة في مهدها آمل لها مزيد العناية من رجال أقدر مني حملا للقلم وفهمًا للموسيقى.

إنما أنا أفتح هنا نافذة صغيرة على هذا العالم السحري الفسيح ليرى خلالها بعض ذوي الحس المرهف والنفوس الغَنِيّة ما يشجعهم على المضي في استكشاف أرجائه، ولتهب منه نسمات منعشة تنقي هذا الجو الموسيقي الآسن الذي عشنا فيه أكثر من اللازم.

٢٤ يناير - ٢٤ مارس سنة ١٩٥٠